إبستيمولوجيا النصّ

علي رضا قائمي نيا

تعريب: حيدر نجف

الكلمات المفتاحيّة: علي رضا قائمي نيا، إبستيمولوجيا، وظيفة النص، نظرية المعرفة، الهرمنوطيقا، الفلسفة التأويلية، قضيّة التمييز.

ربّما دلّ عنوان **إبستيمولوجيا النص** على ألوان الالتباس والخطأ في رأي لفيف من علماء المعرفة، وبالتالي سيكون هذا العنوان أمرًا غير ممكن. يتطرّق علم المعرفة أو نظرية المعرفة لأسئلة من قبيل: "ما هي المعرفة؟"، و"هل المعرفة ممكنة؟" و"ما هي حدود المعرفة ومدياتها ؟"، و"هل يمكن أن نتصوّر للمعرفة حدودًا، أساسًا؟". هذه أسئلة شهدتها الساحة الفلسفية منذ القدم، فكانت نظرية المعرفة تبعًا لها وللمناخ الفلسفي السائد في كل برهة تتقدّم على الميتافيزيقا، أو تتأخّر عنها وتتهمّش. وطبعًا تقدّمت الدراسات المعرفية في القرن العشرين، إلى واجهة المشهد الفلسفي، أو قل إنها تبوّأت مركز الصدارة في بحوث الفلسفة التحليلية.

بين الإبستيمولوجيا وإبستيمولوجيا النص

يطرح علماء المعرفة هذا السؤال بخصوص النص: "هل ينبغي أن تكون إبستيمولوجيا النص تبعًا للإبستيمولوجيا الرسمية وتطبيقاتها أم لا؟".

ليست إبستيمولوجيا النص تبعًا أو تطبيقًا للإبستيمولوجيا الرسمية، رغم أن الأولى قد تنتفع من الثانية، إلا أنها تحتاج إلى أطروحة جديدة. نحن في هذه المسألة حيال رؤيتَين متفاوتتَين تمامًا: فريق من علماء المعرفة وهم المتأثرون غالبًا بالفلسفة التحليلية، لا يرون مساحة مستقلّة لإبستيمولوجيا النص، إنما يعتبرونها تبعًا وفرعًا للإبستيمولوجيا الرسمية التي بمقدورها، عبر بعض التغييرات الهامشيّة، معالجة قضايا إبستيمولوجيا النص. و في المقابل، ثمة جماعة ينتمون غالبًا إلى الفلسفة القاريّة، يعتقدون أن الإبستيمولوجيا الرسمية ذات منافع جمّة لإبستيمولوجيا النص، بيد أن تشييد إبستيمولوجيا نصوص يحتاج لأطروحة جديدة، وسنخ إبستيمولوجي مختلف. وهم يرون أن الهرمنوطيقا هي تلك الإبستيمولوجيا الخليقة بالنصوص.

من المناسب إيضاحًا للرؤيتَين إضافة أنّ الفلسفة الغربية عنوان تقريبي يطلق على نمطَين فلسفيَّين متفاوتين جدًّا: الأول هو الفلسفة التحليلية Analytical philosophy السائدة عمومًا في البلدان الناطقة بالإنجليزية. والثاني هو الفلسفة القاريّة Continental philosophy الشائعة عادةً في البلاد الناطقة بالألمانية. ويكتنف النمطَين توجهات مختلفة داخل إطارَيهما. ففي الفلسفة القارية مثلًا تتبدّى نزعات فلسفية لشخصيات من قبيل هيغل، وماركس، وكريكغارد، ونيتشه، وهوسرل، وسارتر، وغادامر، وهابر ماس. ويمكن ذكر مدارس عدّة تنضوي كلّها داخل النمط الفلسفي القارّي؛ منها الماركسية، والمثالية، ومدرسة فرانكفورت، والوجودية، والهرمنوطيقا، والظواهرية، وما بعد البنيوية[1]. يبذل الفلاسفة التحليليون، خلافًا لمفكري النمط القارّي، جهودًا واهتمامات كبيرة لدراسة نظرية المعرفة. وفي المقابل تشهد الدراسات الهرمنوطيقية لدى الفلاسفة القاريّين تطورًا وازدهارًا كبيرَين، بينما لم يولها الفلاسفة التحليليون كبير اهتمام. ولكل من هذَين النمطَين خصائصه المائزة التي قد يبعدنا الخوض فيها عن غاية البحث. بيد أنّنا نكتفي بالإشارة إلى أنّ الفريقَين يتنافسان على احتكار الدراسات الإبستيمولوجية كلٌّ لنفسه. انبثقت الهرمنوطيقا من صميم الفلسفة القارية، وتزعم لنفسها الهيمنة على إبستيمولوجيا النص، وفي المقابل تسعى الإبستيمولوجيا الرسمية نيابة عن الفلسفة التحليلية، إلى توسيع رقعها لتشمل النصوص. ولم يفد من كلا النمطَين الفلسفيَّين إلا القلّة من المفكرين الذين حاولوا بناء إبستيمولوجيا جديرة بالنص.

نستعرض في هذه السطور إجمالًا عدة محاور أساسية، يتجلى منها أن إبستيمولوجيا النص يجب أن تنهل من العناصر المجدية في كلا النمطَين، وعالم المعرفة مضطر للمزج بين عناصر من كلا الاتجاهَين، ليتمكن بفضلها من نحت حلول مناسبة لقضايا النص ومعرفته. وفي ما يلي نتناول هذه المحاور باختصار:

1- علم معرفة النص وأبرز قضاياه.

2- علم المعرفة المعاصر وعلاقته بعلم معرفة النص.

3- مثلث الهرمنوطيقا وإبستيمولوجيا النص.

4- الخلفيات المتنوّعة المساهمة في إبستيمولوجيا النص.

5- علم معرفة النص والآفاق الجديدة.

---

[1] David West, *An introduction to continental* \I philosophy, pp.1-6, (Polity Press, 1996).

أولًا– علم معرفة النص وأبرز قضاياه

تحظى النصوص بأهمية خاصة، فكل نص يتوخى نقل معانٍ إلى القارئ وطبعًا ليست النصوص جميعًا في مستوى واحد. فالنصوص الأدبية مثلًا صنف خاص من النصوص يتضمن في داخله تفريعات عدة، كالشعر والنثر وغيرها.

والنصوص الدينية هي الأخرى صنف محدّد من النص، ينطوي على أنواع متفاوتة لا تندرج ضمن مقام ومستوى واحد. ويمكن تشبيه كلّ نص بعالم له مفرداته ومفاهيمه الخاصة التي تميزه عن عالم نص آخر. هذه النصوص أو قل عوالم النصوص، تنسج شبكة من المفاهيم والطروحات الجديدة، وهي في صدد نقل معنًى أو صورة معينة للمتلقي. من هنا، فإنّ المتلقي يفتح عالمًا جديدًا. وقد شهد القرن العشرون نظريات جدّ متنّوعة حول عالم النص وفهم المتلقي. تزعم بعض النظريات أنّ النص يتجاوز ظروف تكوينه وتأليفه ومؤلفه، ليحمل ما لا نهاية له من المعاني لا فضل لأيٍّ منها على الآخر. ليس للنص معنًى محدّد. والإجابة عن السؤال "هل للنص معنًى خاص أم أنه يحتمل ما لا نهاية له من المعاني؟"، تقسم بأهمية بالغة، فثمة الكثير من النزاعات في مجالات مختلفة بشأن معاني النصوص. ووظيفة عالم المعرفة فحص أدلة كل واحدة من النظريات المتنازعة.

ويثار في مضمار النصوص سؤال آخر "هل يواجه فهم النصوص حدودًا معينة أم لا توجد أيّ حدود تقيّد فهم النص، بحيث يمكن ظهور ما لا نهاية له من المفاهيم للنص الواحد؟". هذه بدورها إشكالية إبستيمولوجية بخصوص النص، وعلى عالم المعرفة اختيار وتقديم الأدلة المختلفة في هذا الباب. إن قضية تعدّد أو وحدة المعنى، وقضية تنوّع أو وحدة الفهم، ما هما إلّا قضيتان فقط من كم هائل من قضايا علم معرفة النص، وكلها جدير بالتأمّل والنظر. عادة ما يلخّص علماء المعرفة مباحث علم معرفة النص في ثلاث قضايا رئيسية: قضية فهم النص، قضية تفسير النص، وقضية التمييز.

1– قضية فهم النص:

فهم النص مغاير لمعنى النص. فالمعنى هو الشيء الذي يحمله النص. أما الفهم فهو ما يمارسه المتلقي أو عامل المعرفة، وقد يصيب به معنى النص أو قد يكون الفهم مغلوطًا، فينحرف عامل المعرفة عن معنى النص ولا يصيبه. المعنى والفهم إذًا أمران متباينان، بيد أنهما متلاصقان بشدّة. لذا يُبحث في معنى النص بعد البحث في قضية فهم النصوص. ونشير في ما يلي إلى الصلة بين الفهم والمعنى:

على صعيد معنى النصوص يُطرح أولًا السؤال: "ما المراد من معنى النص؟". لو نظرنا إلى النصوص من زاوية لغوية لألفينا أن كلّ نصٍّ يتألف من مجموعة من الجمل. فهل معنى النص، مجموع معاني هذه الجمل؟ أي هل معنى النص يتكوّن من صفّ معاني جملاته بعضها تلو بعض؟.

وثمة احتمال آخر، فقد لا يكون معنى النص المجموع الجبري لمعاني جملاته، بعضها تلو بعض. إنما تنسج هذه الجمل شبكة مترابطة تمثّل كلًا له معناه الواحد. والفارق بين الاحتمالَين واضح، فبحسب الاحتمال الأول يتبدى معنى النص من مجموع معاني الجملات جبريًّا، وهو احتمال ذرّيّ النزعة Atomistic في نظرته لمعنى النص، أي يرى معنى النص مركبًا من المجموع الجبري لذرّات خاصةً هي معاني الجملات على انفراد. أما الاحتمال الثاني فذو نزعة شمولية Holistic في نظرته لمعنى النصّ، ولا يرى معنى النص حصيلة المجموع الجبري لمعاني جملاته. فكل واحدة من الجمل ذات دور مميز، وتمثل بالنسبة إلى الجمل الأخرى سياقًا وأرضيّة لا بد منها. إنها كحلقات سلسلة تترابط في ما بينها لتؤدي دورًا معينًا وتفرز معنى خاصًا.

وتثار في هذا السياق قضية أخرى سبق أن لمحنا إليها وهي: هل يحتمل النص ما لا نهاية من المعاني أم لا؟ بعض المنظرين لا يرى للنص معنى خاصًّا. فمثلًا يسجل غادامر Gadamer أنّ معنى النص غير متعيّن على الإطلاق، فهو منوط بالمخاطَبين والمتلّقين الذين يحددون معانيه، بحسب ما يفهمونه منه[2]. ولجاك دريدا Derrida مؤسس التفكيكية رؤية مختلفة للنص، يقرر أنّ النص ينطوي على ما لا نهاية له من المعاني الممكنة ولا فضل لأي منها على الآخر بشيء. يتكون النص من لعبة ما لا نهاية له من العلامات وحينما تقف هذه العلامات بعضها حيال البعض الآخر، تخلق معاني لا تتّسم بالحسم والنهائية على الإطلاق، إنّما يمكن تصور ما لا نهاية له من المعاني للنص. لذلك يفهم دريدا النص على أنه ماكنة تنتج العراقيل والتعويقات، ماكينة تؤخّر معنى النص وتعوقه[3].

وهناك في المقابل طائفة من المفكرين لا يرون للنص إلا معنى واحدًا. تشكّل هاتان الرؤيتان طيفين متقابلين. وهناك فريق من علماء المعرفة لهم نظريات أكثر تشذيبًا، يقولون بموجبها إنّ النص لا هو ذو معنى واحد، ولا هو حامل لما لا نهاية له من المعاني الممكنة، إنما يتقيّد فهم النص وبالتالي معانيه الممكنة بقيود معينة تستدعي تعدديّة

---

[2] Georgia Warnke, *Gadamer*, p.67, (Polity Press, 1994).

[3] Umberto Eco, The limits of interpretation, pp.32-34, Indiana University press (1994).

معنى النص لا وحدته، غير أن هذه التعدّدية لا تستمر إلى ما لا نهاية. فلغة النص مثلًا تقيّد معانيه، إذ لكل لغة حدودها وأصولها الخاصة. ودراسة النظريات المختلفة في هذا المجال، وفحص براهين كل واحدة منها، والبحث في عوامل تقييد معنى النص، من أمتع وأنفع مباحث إبستيمولوجيا النص التي قلّما حظيت بما يلائمها من الاهتمام. فبين النظريات المعاصرة ثمّة كم كبير من النظريات التشكيكية ينبغي أن تنال نصيبها من النقد والدراسة.

للنظريات المختصّة بفهم النصوص علامة وطيدة بالنظريات التي تتناول معنى النص. حول فهم النصوص يثار هذا السؤال: هل تنوّع المفهوم ممكن أم لا؟ وإذا كان ممكنًا فهل يتسنى حصره في عدد معيّن أم لا؟ إذا لم يكن لمعنى النص تخوم يتوقف عندها، فإنّ فهم النص هو الآخر لن يتوقف عند حدود. أما إذا واجه معنى النص تقيدًا وتخومًا، فإن فهمه أيضًا سيتوقف عند هذه التخوم. ويحاول علماء المعرفة إيضاح هذه العلاقة المتقابلة بين المعنى والفهم، من حيث التقيّد أو عدم التقيّد. وبسبب هذه الصلة، لا بد من التطرّق لمعنى النص عند الحديث عن فهم النص. وفي مناقشة فهم النصوص تُدرس عوامل تحديد الفهم. ونظير الطيف الذي أشرنا إليه في ما يتعلق بالمعنى، يوجد في مجال الفهم أيضًا. ففي أحد طرفي الطيف تقف نظرية متطرفة تقول إن كل فهم هو سوء فهم ولا يوجد فهم صحيح على الإطلاق. وفي الطرف الآخر تقف نظرية تقول إنّ النص مفتوح تمامًا ولا توجد أيّ قيود تحدّده، وبوسع المتلقّي أن يفهمه بأيّ معنًى شاء. هذه النظرية الأخيرة تقرّر ضربًا من الحرية المعرفية في ما يتعلق بفهم النصوص. وهناك نظريات معدّلة تحدد الفهم بعوامل وعناصر خاصة. إشكاليات فهم النص لا تنتهي عند هذا الحد طبعًا، بل تتضمن قضايا أخرى.

2- تفسير النص:

ينبغي عدم الخلط بين فهم النص وتفسيره، فالفهم يتوخى معنى النص، أما التفسير Interpretation فله وظائفه المختلفة جدًّا، ومن أهمها الوصول إلى مقتضيات المعنى. فالنص التاريخي قد يثير انطباعات لدى المخاطب القديم، أما المخاطب اليوم، الذي تفصله عن المخاطب القديم عدة قرون فقد يرى لهذا النص مقتضيات ولوازم لم يفطن إليها المخاطب القديم. وفي هذه الحالة نقول إن المخاطب اليوم قام بتفسير النص. وهي عملية لا يصح استخدام مصطلح الفهم Understanding للتعبير عنها. ويمكن الإشارة إلى استعمالات أو وظائف أخرى للتفسير. فالنص التاريخي الذي يفصله عن المخاطب اليوم زمن طويل، له معانيه لدى المخاطب القديم الذي عاصر صدوره، فهل يمكن اكتشاف معنًى لهذا النص لم يخطر ببال مؤلفه القديم، ولا ببال مخاطبه القديم؟. هذا واحد آخر من استعمالات التفسير ومصاديقه. فإذا اكتشفنا معنًى يتخطّى مراد المؤلف الذي مضت على ابتكاره

للنص مئات السنين، وفَهم متلقيه المعاصرين لصدوره، نكون قد فسّرنا النص. وطبعًا لا بد من الانتباه إلى أن التفسير قد يستعمل في الكثير من الحالات بمعنى الفهم، وهو استعمال يكثر لدى الهرمنوطيقيين. لذلك فهم كلّما تحدّثوا عن قيود التفسير، أرادوا قيود الفهم لا قيود التفسير بالمعنى الأخص[4]. والتمييز بين الاستعمالَين لمفردة التفسير مهم جدًّا لعالم المعرفة، وإغفاله قد يؤدي به إلى مغالطات وكبوات. يجري الحديث في نطاق تفسير النصوص، عن الوظائف المختلفة للتفسير، وارتباطات هذه الوظائف بعضها ببعض، كما يبحث في تصنيفات التفاسير ومعايير التقويم، وموضوعية Objectivity أو عدم موضوعية التفاسير ومدى صدقها. وتطرح بخصوص تفسير النص مفارقات يُعنى علماء المعرفة بمعالجتها. ولعلّ أشهر هذه المفارقات مفارقة التفسير The paradox of interpretation القائلة: هل يضيف المفسّر أثناء عملية التفسير شيئًا إلى النص أم لا؟ فإن كان يضيف، فقد غيّر النص، وإن لم يضف شيئًا لم يفسّر النص. إن القابليات والوظائف المختلفة للتفسير تستلزم أن يضيف المفسّر شيئًا إلى النص. ومعالجة مثل هذه المفارقات تقتضي مجالًا أوسع مما نحن فيه. لكن يجب الالتفات إلى أن علماء المعرفة يحاولون دائمًا تقديم طروحات لمعالجة مثل هذه الإشكاليات.

3– قضية التمييز:

المراد بالتمييز تفكيك الأشياء داخل إطار المعرفة. وبعبارة أدّق، فإن تمييز الشيء هو المعرفة به على نحو متمايز عن الأشياء المعروفة الأخرى. يطرح العديد من المسائل في مضمار تمييز النصوص. فتطرح أولًا مسألة فحواها: من أين لنا تشخيص هل هذا الشيء نص أم لا؟ وما هي خصائص النص التي يمتاز بها؟ وفضلًا عن هذا، كيف لنا أن نكتشف معنى النص؟ أو كيف نتيقّن أنّ هذا المعنى الخاص هو المعنى المقصود من النص؟ مثل هذه الأسئلة تثار في ما يخصّ النصوص فقط. وربما كانت عن السؤال الأول واضحة، لكنها تحتاج بلا شك إلى تعريف النص. وطبعًا ليس تعريف النص بشكل دقيق، من قضايا معرفة علم النص، بل هي من مقدماته ومبادئه. وقد صيغ العديد من تعاريف النص التي لها تأثيراتها في دراسته ومعرفته. فالمتأثرون بالفلسفة المتأخّرة لفيتغشتين، يذهبون إلى التقارب العائلي بين النصوص، ويرون تعريف النص ممارسةً خاطئة. ويجب الانتباه إلى أنّ الإجابة عن السؤال الأول تثير عدّة نقاشات وقضايا يترابط بعضها مع بعض في كثير أو قليل. فمن أبرز خصائص النص مثلًا أنه يتشكّل من علامات، وهذا ما يشرك البحث عن طبيعة العلاقات وآلية تشخيصها في حيثيّات النص وتعريفه. ثم إنّ هذه العلامات لغوية، ما يجعل للدراسات اللغوية وفلسفة اللغة دورها في إبستيمولوجيا النص.

---

[4] Jorge Garcia. *E, A Theory of textuality*, pp. 147-152, (State University of New York, 1995).

وفي الإجابة عن السؤال: كيف يمكننا اكتشاف معنى النص؟ جعل العديد من علماء المعرفة المتأثرين بالهرمنوطيقا، "الدورة التأويليّة"[5] أو الدور الهرمنوطيقي Hermeneutic Circle ملاكًا للقبض على المعنى. والتعريف التقليدي للدورة التأويليّة هو أنّ معنى الجزء يفهم من الكل، ومعنى الكل يفهم من الأجزاء. والدورة التأويليّة هي ما نقوم به عادةً حين إتقان لغة أجنبية. فنحن نحاول معرفة معنى الجملة الأجنبيّة بواسطة معرفة معاني أجزائها وكلماتها. ومعاني الكلمات نستقيها بدورها في معنى الجملة التي تحتويها. لم يكن "شلاير ماخر" يرى أن هذا الدور دورٌ باطلٌ، بل كان يرى أنه ينطوي على لون من الحدس والشهود. ففي ارتباط الكل بالجزء والجزء بالكل الذي يحصل في الدّورة التأويليّة، نستطيع حدس معاني الكلّ والأجزاء. وطبعًا هناك كثير من الآراء والنظريات حول الدورة التأويليّة لكل من مقتضياتها ونتائجها الخاصة. فمثلًا يمكن الإشارة إلى رأي "هايدغر" في هذه المسألة الذي أفاد منه غادامر، أو إلى نظرية ريكور Ricoeur القائمة على مرتكزات خاصة.

ثانيًا: علم المعرفة المعاصر وعلاقته بعلم معرفة النص

تخوض الإبستيمولوجيا المعاصرة عمومًا، في تعريف وتسويغ المعتقدات. فالمعرفة التي يتناولها الإبستيمولوجيون المعاصرون هي معرفة القضايا أو المعرفة الحُكْمية. ونضيف إيضاحًا للفكرة: إنّ للمعرفة استعمالاتها وتطبيقاتها المتفاوتة، فتستعمل المعرفة أحيانًا بمعنى المعرفة المباشرة Knowledge by acquantance. نقول مثلًا: إننا نعرف الشخص الفلاني أو الشيء الفلاني (أي إننا عارفون به). والمراد بهذه المعرفة معرفة الشيء أو الشخص وعدم الجهل به. والاستعمال الآخر للمعرفة يتعلق بالمهارات. فحينما يقال إن فلانًا يعرف القيادة، فالمراد أنه يتقن قيادة السيّارات. والمعرفة بمعناها هذا تقتضي تمارين عملية وتمرس وإتقان. ولا يُعنى علماء المعرفة بأيٍّ من هذَين الشكلَين للمعرفة. الشكل الثالث للمعرفة حينما نقول مثلًا: إنّنا عارفون بالقضية P. هذا هو الذي نقصده من المعرفة الحكمية أو معرفة القضايا. وقد خاض علماء المعرفة في تعريف وتحليل هذا الصنف من المعرفة. وتعريفها

---

[5] حول الدورة التأويلية راجع الكتاب:

Or the circle of understanding

من كتاب

Gadamar & Specht & Stegmuller, *Hermeneutics versus Science*, (Notre Dame Press, 1988).

المشهور هو التعريف بالجزئي، أي "الإيمان بالصدق المسوَّغ". فحينما نقول إننا عارفون بالقضية P، نقصد أولًا أننا نؤمن بهذه القضية، وثانيًا أن هذه القضية صادقة، وثالثًا أنها قضية مسوّغة.

واليوم، ثمة بحوث ودراسات معمقة حول هذا التعريف. فلعلماء المعرفة آراؤهم بشأن الإيمان أو الاقتناع، والصدق، والتسويغ، وطبعًا يحظى التسويغ بحصة الأسد من هذه الدراسات. وهنالك أيضًا أضواء تسلط على أنواع المعرفة وحدود المعرفة ومدياتها، وحتى النزعة التشكيلية[6].

جلي أن علم المعرفة المعاصر بعيد جدًا عن علم معرفة النص. فأبرز موضوعات علم معرفة النص تدور حول فهم النصوص وتفسيرها، بينما المحور الأساس في علم المعرفة المعاصر هو المعرفة الحُكمية. فالفهم والتفسير يصنفان بالنسبة إلى المعرفة الحكمية صمن حيّز مختلف تمامًا. أضف إلى ذلك أن طائفة من مباحث الهرمنوطيقا المعاصرة، كقضايا الدورة التأويلية، وتأثيرات الفهم في النص، ومساهمة المتلقي في فهم المعنى، والدراسات التفكيكية وما تكتنفه من طروحات، ضرورية كلّها لعلم معرفة النص، بينما لا تحتل مكانة في علم معرفة النص، إلاّ أن الأخير بحاجة إلى أطروحة وإبستيمولوجيا مستقلة.

ثالثًا: مثلث الهرمنوطيقا وإبستيمولوجيا النص

للهرمنوطيقا المعاصرة مثلث ينوب كل واحد من رؤوسه عن نزعة هرمنوطيقية خاصة. والنزعات الهرمنوطيقية الثلاث هي: النظرية التأويلية، الفلسفة التأويلية، وعلم التأويل النقدي[7].

---

[6] للتعرف إلى قضايا المعرفة راجع الكتاب:

Audi Robert, *Epistemology*, (Rout ledge, 1998).

وكتاب آخر هو:

Dancy Jonathan, *An Introduction to contemporary epistemology*, (Basil Black well, 1986).

[7] لمزيد من الإطلاع على هذه المناحي الثلاثة راجع:

Bleicher, Josef, Contemporary Hermeneutics, Routtedge, (1980).

وحول علم التأويل النقدي راجع:

Grondin Jean, Introduction to philosophical hermeneutics, Yale University, (1994).

ترى النظرية التأويلية Hermeneutical theory أن الهرمنوطيقا منهج وعلم معرفة خاص بالعلوم الثقافية أو الروحية. إن تقسيم العلوم إلى إنسانية وطبيعية تقسيم معروف لدى الجميع. يرى أنصار النظرية التأويلية أن الهرمنوطيقا هي علم منهاج العلوم الإنسانية(الثقافية أو الروحية). ففي العلوم الطبيعية نحتاج إلى التبيين، أم العلوم الإنسانية فتركز على فهم الظواهر وما يتعلق بها. ومن أبرز أقطاب هذه النزعة وليلهام دلتي Dilthey، وربما كان أهمهم بتّي Betti.

أما الفلسفة التأويلية Hermeneutic philosophy، فتعارض أشد المعارضة إمكانية تأسيس علم مناهج أو علم معرفة خاص بالفهم. نحن في العلوم الإنسانية نتوخى فهم معنى الظواهر. فنريد مثلًا معرفة معنى هذا العمل الفني أو ذاك النص. والفلسفة التأويلية ترفض الجهود الرامية لتشييد علم مناهج وعلم معرفة خاص بفهم المعاني، وترى أن هذه الجهود ضرب من النزعة الموضوعية. فالفهم مما لا يمكن بلورته في منهج أو أسلوب قاطع. ويمكن تلخيص رأي الفلسفة التأويلية في أن المفسر، وكذلك علم العلوم الاجتماعية، والموضوعة التي يدرسانها على قاعدة ثقافيتها، عناصر متواشجة بعضها مع بعض، وبالتالي فإنّ للمفسر أو العالم قبلياته حيال موضوعة البحث، فهو لا يتناولها إطلاقًا بذهنية خالية. ولعل أبرز أعلام هذا الاتجاه الفيلسوف الألماني هانس غادامر.

ولعلم التأويل النقدي Critical Hermeneutics رؤية على جانب كبير من الأهمية تمايزه عن الفلسفة التأويلية والنظرية التأويلية. النظرية التأويلية تنشد منهاجًا خاصًّا لفهم المعنى، والفلسفة التأويلية تشدّد على دور الثقافة المسبقة في فهم المعنى. وقد ذهل كلا الاتجاهين عن زاوية نظر أخرى يمكن من خلالها معالجة قضايا المعنى، ألا وهي طرح الأسئلة على محتوى التفسير ومتعلقه. وللتمثيل فإن السؤال: هـ للمعنى النص نصيب من الحقيقة أم لا؟ غير مشهود في أي من الاتجاهين الأولين. فالنظرية التأويلية تجد مناقشة هذه المسألة خارج نطاق علم مناهج الفهم وعلم معرفة الفهم. والفلسفة التأويلية بدورها تُقصي هذه المسألة بتركيزها على دور الثقافة. لذلك اختص علم التأويل النقدي بطرح ومعالجة هذه النقطة. ففي هذا المنحى تعالج تأثيرات العوامل غير اللغوية في الأمور الثقافية. هابماسHabermas وأبل Apel من أشهر مفكّري هذه المدرسة.

في كل واحد من هذه الاتجاهات قضايا نافعة لعلم معرفة النص، ومن ذلك التأثيرات الثقافية، ودور العوامل غير اللغوية في فهم معنى النص. وقد تراكمت دراسات مستفيضة حول معنى النص وفهمه وقضية التمييز، توزعت على المناحي الثلاثة المذكورة داخل الإطار العام للهرمنوطيقا. وبالطبع ثمة مناحٍ هرمنوطيقية أخرى غير هذه الثلاثة، منها ما يحاول التوفيق بين الاتجاهات كافة.

يحتاج علم معرفة النص إلى مباحث أخرى لا نصيب لها من الذكر في الهرمنوطيقا المعاصرة. فقضية المعنى والأفعال الكلامية Speech acts مثلًا وغيرها من قضايا فلسفة اللغة، ذات تأثير بالغ في علم معرفة النص، إلا أن الثقافة الهرمنوطيقية لا تخوض في هذه المواضيع. لذلك كانت الهرمنوطيقا وحدها لا تلبي مطامح عالم معرفة النص، على الرغم من أنها أحد أهم مصادره.

رابعًا: الخلفيات المتنوعة المساهمة في إبستيمولوجيا النص

يتبدى ممّا ساف أن علم معرفة النص ينهل من إنجازات علم المعرفة والهرمنوطيقا، هذا أولًا، وثانيًا ليس من الصواب أن تكتفي إبستيمولوجيا النص بعلم المعرفة والهرمنوطيقا حتى لو اجتمعا. في كلا المدرستين الفلسفيتين — القارية والتحليلية — دراسات مسهبة تتصل بعلم معرفة النص، إلا أن الخلفيات الأصلية التي يعتمد عليها علم معرفة النص هي: علم المعرفة، الهرمنوطيقا، علم الدلالات، علم اللغة، وفلسفة اللغة.

يتشكل النص من علامات، لذا كان التنقيب في علامة هذه العلامات بمداليلها، وكذلك علاقاتها بالأمور الخارجية، وكذلك تفسير هذه العلامات، على جانب كبير من الأهمية. يتطرق علم الدلالات Semiotics لهذه القضايا، لذلك فإن نتائجه مفيدة لإبستيمولوجيا النص. فلهذه العلامات خصائص مميزة تستدعي الخوض في تنقيبات أخرى. العلامات التي تصنع النص علامات لغوية، والمفردات علامات تستخدم في النص، فهل لهذه المفردات معنى؟.

ما هو المعنى؟ وما هي صلة معنى المفردات بمعاني الجمل؟ ما هي الأفعال التي يقوم بها المتكلم أثناء كلامه؟ ما هو المصير الذي ستؤول إليه هذه الأفعال الكلامية حينما يتحوّل الكلام الشفهي إلى نص مدوّن؟ كل هذه القضايا تنتمي لفلسفة اللغة وعلم اللغة. ومن هنا كانت نتائج هذين الفرعين المعفيين ذات دور في إبستيمولوجيا النص.

خامسًا: علم معرفة النص والآفاق الجديدة

تنوع الخلفيات المساهمة في صياغة علم معرفة النص، من العوامل التي تجعل تدوينه الكامل عملية شائكة. إذ لا تزال الإنجازات الضخمة الجامعة نادرة في هذا الباب. فتنوع المجالات المساهمة أزهدت الباحثين في التطرق لهذا الحيّز المعرفي. أما السبب الآخر لهذا الشح، فينبغي تقصيه في النقطة التي أشرنا إليها مطلع البحث. إبستيمولوجيا النص تستسقي من كلا النمطين الفلسفيين القاريّ والتحليلي، وعادة ما ينحاز الباحثون إلى أحد هذَين المسلكَين

متجاهلين الآخر. لذلك، قلّما ظهر باحث تابع إنجازات المسلكَين. بيد أن هذه العوامل لا تحط من مكانة إبستيمولوجيا النص، فطروحاتها جد مشوّقة ومفيدة للمشتغلين بالنقد الأدبي، وشرح النصوص الأدبية وتفسير النص الديني. وأخال أننا سنشهد في المستقبل القريب تطور هذه الدراسات والطروحات واتساع رقعتها. ولا ريب في أن هذا التطور ممكن بفضل تراكيب جديدة بين عناصر المنحيَين الفلسفيَّين المعاصرَين واصطناع حلول ومعالجات جديدة. ينبغي عدم إغفال نظريات علم اللغة الحديث وفلسفة اللغة، فهذه النظريات التي تجتاز العقود الأولى من عمرها، تؤثر متصاعدة في علم المعرفة والهرمنوطيقا، ولا شك في أن القرن الحادي والعشرون سيشهد دراسات معرفية جديدة تحت تأثير هذه الفروع العلمية، وستفتح نتائجها آفاقًا غير مسبوقة أمام إبستيمولوجيا النص.